الباب التاسع

أ- الشجاعة والذكاء والوفاء عند الخيول

يتمتع الحصان العربي الأصيل بذاكرة حادة، وخاصة للأماكن التي يمر فيها أو الأشخاص الذين يتعاملون معه. وفي المعارك يتذكر الجهة التي أتى منها حتى لو أصيب بجروح بالغة. فالحصان إذا انطلق بعيداً عن مربطه فهو لا يخطئ طريق عودته إلى مربطه مهما بعدت المسافة عنه. كما يفهم الإشارات الصادرة من فارسه ويعرفها ويتجاوب معها.

يقول و.ر.براون: «يعد الجواد العربي من أذكى الخيول على الإطلاق. وإن صفاته الرائعة مثل: الذاكرة القوية وسعة الصدر والوداعة تجعله أجدر المخلوقات وأنسبها لخدمة الإنسان، كما ترفعه قدرته على القيام بوظائف ذهنية أخرى، إلى مرتبة الصديق الذي يستحق كل اهتمام وعناية .....» أ. هـ.

إن الحصان العربي يعرف وقع قدمي صاحبه دون أن يراه. فيصهل له ويحمحم معبراً عن الفرح والتحية لصاحبه. وإذا فاجأه في الليل، وهو نائم ولم يسمع صوته، هب مذعوراً يدافع عن نفسه. فإذا عرفه تغير حاله، وأخذ موقف الخجل والاستحياء بعد صولته وإظهار العداء، ويبدأ بالحمحمة ويخفض رأسه.

والخيول العربية الأصيلة وفية لأصحابها. وخاصة الذين يقومون على تربيتها وتدريبها بأنفسهم، فتقبل عليهم إذا نادوها. والجواد العربي يقوم بدور الحارس الأمين لفارسه، فيظل يقظاً منتبهاً لكل حركة. حتى إنه إذا رأى قادماً أخذ يضرب الأرض بحافره ليوقظ صاحبه. وروي الدكتور خوري في (الخيل وفرسانها): «شاهدت فرساً لأعرابي كان يتركها مطلقة وينام، فتأخذ بالدوران حوله وتحميه كفارس أمين. ولما كان البعض يجرب أن يدنو منه تهجم عليه بكل حدة ... وشاهدت فرساً أخرى تجثو على يديها عندما يكلمها فارسها بهذه العبارة: آخ، آخ» أ.هـ.

فالحصان إذن من الحيوانات شديدة الوفاء لصاحبها، لا يفارق فارسه إذا سقط عنه، بل يظل إلى جانبه يحرسه ويحاول إيقاظه وإنهاضه.

تتمتع الخيل العربية بمهارات رائعة، وقدرات فائقة.

وقصص وفاء الخيل لأصحابها كثيرة، ومنها قصة عباس باشا الأول -خديوي مصر- عندما أوفد علي باشا إلى الجزيرة العربية ليشري له خيولاً عربية، فاشترى له عدداً من الخيول وكان من بينها واحدة بيعت وصاحبها في الحج، فلما عاد وسأل عنها أخبروه أنها بيعت لعباس باشا فرفض البيعة وذهب إلى مصر لاسترجاعها ودخل على عباس باشا وطلب فرسه وكان يحمل نقودها وقد مضى على البيعة ثمانية أشهر، فقال له عباس: إننا لا نعرف فرسك لأننا اشترينا خيولاً كثيرة، فقال: هي التي ستعرفني، وإن لم تعرفني فلا فرس لي عندكم، فوافقوه على ذلك وأخرجوا الخيل جميعاً فوقف صاحب الفرس على ربوة مرتفعة وأخذ ينادي فرسه باسمها، فرفعت الفرس رأسها وحركت أذنيها لتميز الصوت، فلما عرفت صوته انطلقت تعدو إليه، وأخذت تتمسح بيديه وخديه فقبلها وبكى من حرارة اللقاء وشدة الوفاء، فتأثر عباس باشا وأعطاه فرسه وثمنها وطلب منه أن يعدهم بمهرة من إنتاجها.

يقول كمال: «والخيل العربي معروف عبر التاريخ بأنه يحمل صاحبه في معركة على ظهره حتى يأتي به إلى منزله حتى لو كان بعيداً جداً عن أرض المعركة. وفي بعض الأحيان يحمل صاحبه المقتول إلى منزله، وكان يُعرف أن صاحب الفرس قد قُتِل في معركة إذا عاد الفرس إلى الديار دون صاحبه؛ لأنه من المستحيل أن يترك الفرس صاحبه. وهناك قصص أخرى كثيرة تدل على وفاء الخيول العربية الأصيلة، وهذه الصفة غير معروفة في باقي الخيول الأخرى» أ. هـ.

وكان لبعض الخيول أثناء الحرب العالمية الثانية القدرة الفائقة على التفريق بين طائرات أصحابها والطائرات المعادية، فقد لوحظ أن الخيل تتوقف عن الأكل عند مرور طائرات العدو، بينما تفعل العكس بالنسبة لطائرات أصحابها، كما لوحظ أنها تقف عن السير أو تسلك طريقًا أكثر وعورة للتخفي من الطائرات المعادية.

وقد قيل: إن حرملة بن المنذر وصف الأسد لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال: «إذا أصر أقصى الخيل أذنيه وفحص الأرض بيديه، والله ما لبث أن جال ثم حمحم فبال، ثم فعل فعلة الفرس الذي يليه واحد فواحد فتضعضعت الخيل وتكعكعت الإبل وتقهقرت البغال، فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله، فعلمنا أن قد أتينا وأنه السبع» أ هـ.

وهذا الوصف يوضح سلوك الخيل عند الخوف، وكيف أن الذعر ينتقل من فرس إلى الفرس الذي يليه.

إن الحياة القاسية التي عاشها الحصان العربي الأصيل مع العرب في صحرائهم الموحشة، واستخدامه في الحروب والغزوات، كل ذلك أكسبه شجاعة نادرة أصبحت عبر القرون جزءاً لا يتجزأ من حياته النفسية وخصاله الحميدة، يقول براون : «يتميز الجواد العربي الأصيل عن باقي أنواع الخيول بشجاعته

المنقطعة النظير، فهو لا يخشى حتى من الأسد والنمر، بل إنه يستخدم في الهند لصيد هذه الحيوانات المتوحشة».

وتمتاز الخيل بسرعة الجري، وقوة الجسم، وشدة الكر عند الإقدام، والفر عند الإحجام: لذا تشترك مع فرسانها في قتل الأعداء فتدوس جماجم القتلى والجرحى وتفرسهم فرساً بسنابكها القوية، وتنزع الجماجم من رؤوس أصحابها بعد أن تجهز عليها، وتصبر على آلام الحرب ووطأتها، وتحتمل تكسر السهام في صدورها، ولا تجفل ولا تهرب من أرض المعركة مهما نالها من ضرب وطعن.

يقول النصيح: «الخيل من أشجع الحيوانات وأنسبها لخوض الحرب، وشجاعتها نادرة، تشهد الضرب والقتل والدماء، وتخرج من أرض المعركة، وتعود في صبيحة اليوم الثاني وهي أكثر نشاطاً لنفس المكان الذي باتت عليه دماء وأطراف الآدميين» أ.هـ.

ويشير كامل سلامة إلى شجاعة الخيل فيقول : «ولئن كانت الشجاعة من سجايا العرب التي عرفوا بها، فهي أيضاً صفة ملازمة للخيول العربية، فهي تثبت في الحرب، ولا تتألم مهما جرحت: لأنها عريقة النسب أصيلة، معودة الإقدام والكر على الأعداء» أ.هـ.

والخيل العربية لا تجفل عند إطلاق الرصاص من الأسلحة النارية بالرغم من أنها غير معتادة على مثل هذا، ولا لأي ضوضاء مفاجئة، إذ لا تحدث عندها أي ريبة أو خوف.

وتقول الرحالة البريطانية آن بلنت: «ومن العبث أن يترك الحصان دون تكبيل أو ربط أقدامه إلى وتد، وإلا سوف يتلوى في رسنه بشكل يصعب تخليصه منه. وكم من مرة نراه يتضور جوعاً: لأنه لا يستطيع الوصول إلى الحشائش، وإذا ما كلله صاحبه بدثار غليظ ليبقى جسمه دافئاً فربما نزعه وهو يحاول التدحرج على الأرض، فترى